نغمات النِّعمة

عامٌ كاملٌ من التأمُّلات اليوميَّة الملهِمة

فيليپ يانسي

أوفير
ophir

"على الكاتب أن يجتهد ليكونَ
ذلك الشخصَ الذي لا يفوتُه شيء".

هنري جيمس (Henry James)

المحتويات

المقدِّمة

ملاحظةٌ للقارئ

التأمُّلات اليوميَّة

شكرٌ وعرفان

قائمة المصادر

فهرس المواضيع بالإنكليزيَّة

عن المؤلِّف

المقدِّمة

عشتُ ثلاثة عقود متفرِّغًا للكتابة، وهذه مدَّةٌ طويلة بما يكفي لكي يقترح أحد الناشرين هذا الكتاب الذي يحتوي على قراءات مأخوذة من أكثر من عشرين كتابًا، ومقالات عدَّة. وبينما أتصفَّح هذه القراءات، أشعر مثلما شعر ريپ ڤان وينكل (Rip Van Winkle) حيث أستعرضُ خبراتٍ وأفكارًا منذ نحو عشرين أو ثلاثين عامًا. فيها شكَكتُ وآمنت وشكَكتُ من جديدٍ، وتغيَّرت ونَموتُ.

لقد نلتُ أيضًا امتيازَ السَّفر إلى بلدانٍ عدَّة، كي أراقب الكنيسة وهي تعمل في إطار ثقافاتٍ متنوِّعة، وأحاور بعضًا من الشخصيَّات المبهرة، منها مَن يُعدُّ قدوة، ومنها مَن يستحقُّ اللائمة. ودائمًا ما أعود إلى مكتبي وأجتَرُّ تلك اللقاءات في مقالاتٍ وكُتب. لقد اكتشفتُ أنَّ لدى بعض الأشخاص فكرةً رومانسيَّةً عن حياة الكاتب. ذات مرَّة تلقَّيتُ رسالة من طالبة تتساءل ما إذا كنتُ أحتاج إلى متطوِّعة. "أستطيع أن أنجزَ لك البحث، أو العملَ المكتبيّ. أو ربَّما إذا كان في وُسعي فقط أن أجلس لأشاهدَكَ تكتب".

أرسلتُ إليها رفضًا رقيقًا، في حين كان ينبغي أن يكون ردِّي: "**عزيزتي الشابَّة، أأنتِ مجنونة؟ لا، ليس في وسعك أن تشاهديني وأنا أكتب! أنا لا أطيق وجودَ إنسانٍ آخر في الغرفة نفسها. إنَّ الكتابة عمل من أكثر الأعمال خصوصيَّة، وربَّما أكثرها هَوَسًا، ولا يجرؤ أحدٌ أن يتجاوز هذه الحدود. علاوةً على أنَّك سرعان ما ستشعرين بالملل الشديد. هل جرَّبتِ أن تمضي اليوم كلَّه تحملقين في صخرة، أو أن تشاهدي شاشة تلفاز مُغلق؟ لعلَّ ذلك يكون أكثر إثارة من مشاهدة كاتب يعمل**".

يجلس الكاتب بمفرده في الغرفة أمام كُومةٍ من الأوراق أو أمام كمپيوتره، يتعامل مع رموز مجرَّدة، محاولًا ترتيبها، ثمَّ إعادة ترتيبها. وكما يشرح فيليپ رُث (Philip Roth) تلك العمليَّة بالقول: "إنِّي أُقلِّبُ الجُملَ على كلِّ جهة. هذه هي حياتي. أكتب جملةً ثمَّ أقلِّبها، بعد ذلك أنظرُ إليها، ثمَّ أقلِّبُها من جديد. أعودُ ثانيةً فأكتبُ جملةً أُخرى بدلَ الأولى. ثمَّ أحتسي كوبًا من الشاي، بعد ذلك أقلِّبُ الجملةَ الجديدةَ. ثمَّ أقرأ الجملتَين، وأقلِّبُهما معًا. بعدها أستلقي على أريكتي وأفكِّر، ثمَّ أنهض وألقي بهما بعيدًا، وأبدأ من جديد". لقد وصفَ رُث يومي بكلِّ دقَّة.

بين كلِّ الفنون، تُعَدُّ الكتابة الأكثر تواضعًا. يستخدم الفنَّانون التشكيليُّون ألوانًا، ويعمل النحَّاتون أعمالًا ثلاثيَّة الأبعاد، وكلا الوَسَطين أكثر جاذبيَّة من تلك الرموز المجرَّدة التي يتعامل بها الكتَّاب. وفي أشكال الفنون الأخرى- السينما والرقص والموسيقا- يتواصل المبدع مع جمهوره مُباشرةً، وبصورة حِسِّيَّة، أمَّا الكتابة فتتطلَّبُ خطوةً وسيطةً، وهي القراءة. لذا على القارئ أن يبذلَ مجهودَ القراءة والفهم كي يصلَ إلى المعاني المُجرَّدة نفسها التي كان قد قَصَدَها الكاتِب. فعندما تعرِضُ نُسخَةً من رواية "**الملك لير**" *(King Lear)* مثلًا لقبيلة من هنود الأمازون، فستبدو لهم مثل فلفلٍ أسودَ مطحونٍ ومَرشوشٍ على صفحات بيضاء.

تكشف الدراسات أنَّ الكتَّاب يقعون في مراكز متقدِّمة في قائمة أصحاب المِهَن المعرَّضين لخطر الإدمان. فهم يُدَخِّنون بشراهة، ويحتسون القهوة بإفراط، ويلجأون إلى الكحول بمعدَّل مُقلق. لماذا؟ لأنَّ عليهم يوميًّا أن يتعاملوا مع شكوكهم العميقة: "ليس لديَّ ما أقوله، لقد قُلت كلَّ شيء من قبل. أنا مزيَّفٌ ومُنافِقٌ، وأكتب بصورة نَمَطيَّة".

علاوة على ذلك، فإنَّ الكتابة هي عمل غير مُتجسِّد يجعل صاحبه يحاول أن يُشرك أجزاءَ الجسد الأخرى، حتَّى إنْ كان ذلك تحريكَ كأسٍ أو لفافة تبغ من المنضدة إلى الفم وبالعكس. لحُسن الحظّ، أعيش في كولورادو، وهي ولاية تتمتَّع بالطبيعة الخَلَويَّة الخلَّابة التي تومئ إليَّ يوميًّا لأعاود الاتِّصالَ بالكوكب بطُرُق أكثر صحَّة (وفي أثناء تلك العمليَّة، أتجنَّب الكتابة).

وعندما أتكلَّم أمامَ جمعٍ من الناس، أشعر كأنِّي خرجتُ لتَوِّي من كهف لأواجه النور المُبهر ومُكَبِّرات الصوت. فيسألني أَحَدُهُم قائلًا: "ما أهمُّ خمسة تَوجُّهات تواجِه الكنيسة اليوم؟" فتطرفُ عينيَّ في مواجهة الضَّوء. ثمَّ يسأل شخصٌ آخر قائلًا: "كيف ترى تأثيرَكَ في العالم؟". وردًّا على كلِّ هذه الأسئلة، أودُّ أن أقول: "وكيف لي أن أعرِف؟ لقد كُنتُ جالسًا في غرفة مكتبي الذي يقع في الطابق تحت مستوى الشارع". لكنْ بدلَ ذلك، أبتسم بأدبٍ وأحاول أن أقول شيئًا ذا معنى.

دون شكّ، يأتي السؤال المعتاد: "هل كنتَ تتمنَّى دائمًا أن تكونَ كاتبًا؟" وعليَّ أن أعترف بأنِّي مثل أغلب الأطفال الأميركيِّين كنتُ أريد أن أكونَ رجلَ إطفاء أو لاعب بيسبول. لكنْ لاحقًا لمَّا التحقتُ بالدراسات العُليا في كلِّيَّة ويتون (Wheaton)، كان عليَّ أن أجد عملًا لأدفعَ مصاريفَ الدِّراسة. وعندما قرعتُ بابَ مقرَّات هيئات مسيحيَّة عدَّة كانت بالجوار، كان العرض الوحيد

الذي حصلت عليه هو من مؤسَّسة هارولد ميرا (Harold Myra) التي كانت في ذلك الوقت الهيئة المسؤولة عن نشر صحيفة "**الحياة الجامعيَّة**" *(Campus Life)*، وهي صحيفة موجَّهة إلى اليافعين من طلبة الجامعة. وفي السنة الأولى، كتبتُ تقاريرَ عن أمور مختصَّة بالجامعة، وكتبتُ نسخةً من النشرة الخاصَّة بالجامعة، ونظَّمتُ ملفًّا للصور، فكان عملي عمومًا مساعدَ محرِّر.

لقد خلق هارولد، صاحب دار النشر تلك، روحًا عامَّةً تُعلي من شأن الكتابة فوق أيِّ شيءٍ آخر. وكان يُرشدُ فريقه من العاملين الصِّغار بصبر قلَّ نظيره. كان يقول مثلًا، وهو يميل إلى الخلف بظهره في كرسيِّه الخشبيّ: "فيليب، هذه المقالة هي ليست سوى ٨٠٪ فقط ممَّا يجب أن تصل إليه". وقد فهمت لاحقًا أنَّ هذا التصريح هو طريقة مهذَّبة لقول: "هذه المقالة سيِّئة، ويجب أن تعيدها من البداية". لقد تعلَّمتُ حرفيًّا كلَّ ما تعلَّمته في أثناء العمل. العمل اللغويُّ في استخدام الأفعال الصحيحة، وبناء الجُملة، ثمَّ بناء الفِقرات والمقالات، وفي النهاية الكُتُب. يمكن أن يتعلَّم المرء أن يكتب، وعندما بدأتُ كنتُ لا أعرف شيئًا تقريبًا.

واكتشفتُ لاحقًا أنَّ عمليَّة تأمُّل خبرات الحياة وتمثيلها على الورق يناسب طبيعة شخصيَّتي الحَذِرة الانطوائيَّة. كنت أستطيع إجراء مقابلات مع شخصيات مختلفة، وأراقب العالم من نافذة موقعي الآمن بوصفي صحفيًّا. لقد أمدَّني الوقت الذي أمضيته في صحيفة "**الحياة الجامعيَّة**" بتدريب ممتاز، حيث لم أجد تحدِّيًا أصعب من الكتابة عن أمور الإيمان في حياة يافعين أميركيِّين مدلَّلين. لقد تعلَّمتُ أنَّ القارئ هو الذي يُدير الصفقة، وليس الكاتب؛ فعندما تفشل في الحفاظ على لفت انتباه القارئ، فستصيرُ خارج المهنة.

كثير من الكُتب المسيحيَّة وضعها متخصِّصون من نوع ما: راعي كنيسة، أو لاهوتيٌّ، أو مُعلِّمٌ، أو أيُّ تخصُّص آخر. أمَّا أنا فبدأتُ حياتي المهنيَّة أعملُ صحفيًّا، ويعني هذا أنِّي لست متخصِّصًا. ومنذ ذلك الحين تمسَّكتُ بهذه الهُوِيَّة. وبعد ذلك بوقت، وجدتُ صوتي– صوتَ سائح على درب الروحانيَّة المسيحيَّة– مجروح من الكنيسة، أبحث في أمور الإيمان، لكنِّي أعودُ أدراجي. أشعرُ بالعرفان الصادق لأنِّي أمتلك تلك المهنة التي تتيح لي أن أعكسَ على الورق ما أصارع به داخليًّا؛ فهي دعوة تعكس قصَّة حياتي.

بعد نحو عشر سنوات في صحيفة "**الحياة الجامعيَّة**"، وجدتُ أنِّي غرقت في التفاصيل الإداريَّة لعمليَّة النشر. ووجدت أنِّي أُمضي وقتي أدرسُ أراقب التوزيع، وأراجع موازنة التسويق بدل الكتابة. فاتَّخذتُ القرارَ الجريءَ أن أصيرَ كاتبًا حرًّا. وفي الوقت نفسه، انتقلتُ من الحياة في الضاحية إلى قلب مدينة شيكاغو، وكأنِّي أؤكِّدُ تلك النقلة.

ينتمي الكثيرُ من الفقرات المنتقاة في هذا الكتاب إلى تلك الحقبة من حياتي. لقد فتحَتْ حياة المدينة أمامي عالمًا جديدًا، لا سيَّما عندما عملَتْ زوجتي اختصاصيَّةً اجتماعيَّةً ما بين الفئات المحتاجة في المدينة. عشنا في وسط المدينة، بجانب ملعب ريغلي (Wrigley Field)، وأثبتَتْ شيكاغو أنَّها مكانٌ مثيرٌ لصحفيّ. عندما ينتابني "انسداد الكتابة" (Writer's block)، أنزل للمشي في الشوارع، فأرى شخصًا قد انتباتْه نوبةُ صَرع، أو يُلقى به خارج إحدى الحانات، أو يصرخ في أحد راكبي الدرَّاجات الناريَّة المارِّ بسرعة.

في الوقت نفسه، انضمَّت صحيفة "**الحياة الجامعيَّة**" إلى مجموعةٍ من المجلَّات التي تنشرها دار "**المسيحيَّة اليوم**" *(Christianity Today)*، وبدأتُ بالكتابة بانتظام فيها. وبالتناوب مع تشَك كولسون (Chuck Colson)، أخذتُ عمودًا شهريًّا، وستجدون في هذا الكتاب اقتباسات عدَّة من ذلك العمود. كما بدأتُ في ذلك الوقت أسافر خارج البلاد، أحيانًا للبحث في مقالات، وفي مرَّات أخرى ضمن رحلات تنظِّمها دور النشر. في تلك الرحلات، تعلَّمت أن أحترم المناظير التي يرى بها الناس في الدول المختلفة عن الولايات المتَّحدة، وعن نسخة المسيحيَّة التي ترعرعتُ فيها. وأقترح لمن يعاني التشاؤم بشأن التركيبة الدينيَّة الصناعيَّة في الولايات المتَّحدة، أن يزور أماكن مثل البرازيل أو الفلبين أو الصين، ويُمضي وقتًا بين الناس الذين يقبلون الإنجيل بوصفه خبرًا سارًّا غير مزيَّن بأيِّ شيء آخر.

في سنة ١٩٩٢م، اتَّخذتُ خطوةً دراميَّة كبرى بالانتقال من وسط شيكاغو إلى سفوح جبال روكي، في كولورادو. في المكانَين كنتُ أعمل في مكتب في الطابق تحت مستوى الشارع، لكنْ يا له من فرق! من نافذة مكتبي في بيتي في شيكاغو كنت أنظر إلى رُكَب المارَّة في الشوارع، وكانت الحياة البرِّيَّة هناك تتألَّف من الحمام والسناجب. أمَّا الآن فأرى من نافذة بيتي أشجار الصنوبر والجبال ذات القمم المكسوَّة بالثلوج، ومواكب من الثعالب والغزلان والظِّباء والدببة والقطط البرِّيَّة- ومن وقتٍ إلى آخر يمكن أن أرى أحد أُسود الجبال- وكلُّها تتجوَّل في حديقة بيتي.

انتقلنا جزئيًّا لأنَّ الحياة صارت مزدحمةً جدًّا في شيكاغو، والجزء الآخر لأنِّي شعرتُ بتغيير في بؤرة كتاباتي. بوصفي صحفيًّا كتبتُ قصصَ الآخرين، حان الآن الوقت لأهتمَّ بما يحدث داخلي نحو كتابات أكثر تأمُّليَّة وشخصانيَّة. لقد احتجتُ لأنْ أفحصَ إيماني الشخصيَّ وأسجِّل خطواتي في تلك الرحلة. ما زلتُ أتعجَّبُ أنِّي استطعتُ أن أكسبَ معيشتي من فعل ذلك. الآخرون الذين يعمَلون في مهن أخرى مختلفة، عليهم أن يتعاملوا مع صراعهم الإيمانيِّ بوصفه أمرًا جانبيًّا، خارج مجال عملهم. أمَّا أنا فأتقاضى أجرًا عمَّا كنتُ أفعله.

في هذه العمليَّة، احتفظتُ بهُوِيَّتي الصحفيَّة، وأشعرُ بأنِّي مدعوٌّ إلى تمثيل المسيحيِّ العاديِّ السائح في دربه. ربَّما لأنِّي كبرت في خلفيَّة كنسيَّة معتلَّة، فإنِّي أتجنَّب تمثيل المؤسَّسة المسيحيَّة بأيَّة صورةٍ رسميَّة. أنا لستُ خادمَ كنيسةٍ مرسومًا، وليسَتْ هناك مؤسَّسةٌ عليَّ أن أحميَ سُمعتَها. وأنا كاتبٌ حرٌّ يُمكنه أن يستكشفَ أسئلته إلى حيثما تقود هذه الأسئلة، دون أن أقلقَ بشأن النتائج. أذهب إلى المتخصِّصين وأتعلَّم ما استطعتُ تعلُّمه، ثمَّ أنقُلُ الإجابات التي أجدها مفيدةً إلى صورةٍ قابلة للقراءة.

إنَّ كلَّ كاتب يلمس موضوع الروحانيَّة يمكن أن يتوحَّد مع توماس ميرتون (Thomas Merton) في قلقه من كَون كتبه تعبِّر عن الحياة الروحيَّة على نحو بالغ الثقة، في حين تُعدُّ حياتُه مبتَلاةً بالقلق والشكوك، بل الرعب أيضًا. وكثيرًا ما ينمو لديَّ الانطباع أنَّ للكلمات التي أكتبها قيمةً باقيةً أكثر من قيمة حياتي نفسها، وأشعر بأنَّه كلَّما وصلتُ إلى مستوى مرتفع في كتاباتي عن الحياة الروحيَّة، أُسيء تمثيل حياتي الفوضويَّة. إنَّ تحرير الكلمات وتصحيحها أسهل جدًّا من تحرير الحياة وتصحيحها. وعندما تصلني رسائل من قرَّاء يخبرونني فيها بمدى تأثير كلماتي فيهم، أشعر بأنِّي أريدُ أن أعترض. "نعم! لكنَّك لا تعرفني- تكلَّم إلى زوجتي". إنَّ الكلمات تمنحُنا، نحن الكُتَّابَ عن أمور الإيمان، قوَّة انتصاريَّة لا نستحقُّها في الواقع.

في أحيانٍ عدَّة، كتبتُ عن سنوات التحاقي بإحدى كلِّيَّات اللاهوت، دون البَوح باسْمها. لم أكن أدركُ إلى أيِّ مدى ضايقتُ الناس هناك، وذلك حتَّى زرتُ الكلِّيَّة، وتكلَّمت إلى بعض من المعلِّمين والإداريِّين هناك. سألني أحد الأساتذة قائلًا: "لماذا تجرحنا؟ لماذا تركِّز فقط على ما هو سلبيّ؟" لقد منحناك جائزة الزميل الأفضل للجامعة في إحدى السنوات، وأنت تعود وتُشهِّر بنا في كلِّ فرصة تجدها سانحة". حاولت أن أستمعَ ببساطة بدلَ أن أدافعَ عن نفسي. لقد علمتُ أنَّه كان يتصرَّف في إطار ردِّ فعل للقوَّة المجحفة للكلمات المكتوبة والمنشورة، التي انتشرت بواسطة كتبي في طول البلاد وعرضها، ناقلةً فقط وجهة نظر واحدة محدودة وغير كافية ومسبِّبة للإحراج.

لماذا نفعل ذلك نحن الكتَّابَ؟ "لكثرة الكتب لا نهاية"، قال كاتب الجامعة ذلك متنهِّدًا منذ ما يزيد على ثلاثة آلاف سنة، ونحو ربع مليون كتاب سيظهر هذا العام فقط في الولايات المتَّحدة. لكنَّنا لا نزال ننحتُ سيلًا لا ينقطع من الكلمات، التي تحمل إمكانيَّة

الإيذاء، كما تحمل فُرص العزاء. تحملُ كلُّ الكتابة شيئًا من الكبرياء. وعندما أكتب الجملة التالية، فأنا أحملُ بالتأكيد الاعتقاد المتصلِّف أنَّها تستحقُّ أن تمضي فيها وقتَك لتقرأها: "بوصفي إنسانًا لم يسبق لك ربَّما أن قابلتَه، أطالبُك بالانتباه، لأعرِّضك لكلماتي وأفكاري. أنصت إليَّ من فضلك، دون أن تكون لديك إمكانيَّة أن تبادلني الآراء".

أعتقد أنَّنا نفعل ذلك لأنَّنا لا نملك شيئًا آخر نقدِّمه أكثر من وجهة نظر. لقد تلوَّن كلُّ ما أكتبه بألوان تأتي من خلفيَّتي الأُسَريَّة، ومن تربيتي في الجنوب وفي البيئة الأصوليَّة، ومن مسيرة سياحتي في الدروب الخلفيَّة. أستطيع أن أكتب من قلبي عن خبرتي الشخصيَّة، وليس عن خبرتك دون شكّ. لكنْ بصورة أو بأخرى عندما أقدِّم خطواتي الكنسيَّة أو الأسريَّة البطيئة المتثاقلة، فربَّما يثير ذلك ردَّ فعلٍ لدى القارئ، مثل صوت صادر من وتر غيتار رنَّان. وكما يقول ووكر بيرسي (Walker Percy)، فإنَّ الكاتب يساعد ربَّما على كشف ما يعرفه القارئ بالفعل، لكنَّه لا يعرفُ أنَّه يعرفه.

لقد كتبتُ عن "الكنيسة المسمومة" التي ترعرعتُ فيها- كنيسة ناموسيَّة وغاضبة وعنصريَّة من الجنوب. أنا أمزحُ عندما أعلن أنِّي في "حالة تعافٍ" من هذه الكنيسة، وأتعلَّم أنَّ ما كانت هذه الكنيسة تقدِّمه بوصفه الحقَّ المطلق، كان خطأً. ونتيجة لذلك، عندما بدأتُ الكتابة، رأيت نفسي شخصًا على الحافَة، أكثر اطمئنانًا عندما أطرح الأسئلة، أكثر ممَّا أقدِّم إجابات. من كُتُبي الأولى، أذكر العنوانَين "**أين الله عندما أتألَّم**" *(Where is God when it Hurts)*، و"**عندما لا تمطر السماء**"[1] *(Disappointment with God)*. ويكشف هذان العنوانان ما كنتُ أصارعُ معه، والطريقة التي وضعتُ نفسي بها في هذه القضايا.

ذاتَ مرَّة، أطلقت على الأشخاص الذين كنت أصغي إليهم وصفَ "ساكني الحدود"، وهؤلاء هم العالقون في أرضٍ لا يسكنُها أحدٌ ما بين الإيمان وعدم الإيمان. بعضُهم يقتربون من الكنيسة بحذر، وينجذبون إلى يسوع لكنَّهم، يُحبطون من أتباعه. وبعضهم هرب من الكنائس بسبب خبرات سيِّئة، لكنْ لا يزالون يحنُّون إلى التعزية التي كانوا يشعرون بها هناك. لقد أمضيتُ أنا نفسي وقتًا على الحدود، وأريد أن أُكرم هؤلاء الذين يقفون هناك دون شعور بالانتماء، وأعبِّر لهم عن احترامي.

لا أريد أن أدافعَ عن الكنيسة، لكنِّي أتوحَّد مع هؤلاء المجروحين، وأحاول توجيههم

---

١) كتاب "عندما لا تمطر السماء" هو من منشورات أوفير للطباعة والنشر. ومن الواضح أنَّ العنوان العربيَّ ليس ترجمةً مباشرةً للعنوان الأصليِّ (الناشر).

إلى الخبر السارّ للإنجيل. لقد قال يسوع إنَّ الحقَّ يحرِّرنا، وإنَّه جاء ليعطيَنا حياةً فيَّاضة أفضل. إذا لم تكن حياةً حرَّةً فيَّاضة، فهي ليست رسالة يسوع. وإذا لم تبدُ بوصفها خبرًا سارًّا، فهي ليسَتِ الإنجيلَ.

إنَّ صنعَتي هي الكلمات، لذا فأنا أنتقيها وأحرِّكها وأفرِّقُ ما بينها وأتأمَّلُها. لقد فعلت ذلك مع كلمات مثل: "النعمة أو الهبة أو الموهبة أو العفو". لقد لاحظتُ أشكالًا من هذه الكلمة تظهر في أماكن غير مُتوقَّعة: صفحات الرياضة (رياضيُّون يتمتَّعون بالموهبة)، وفي ساحات الانتظار (مدَّة ساعة معفاةٌ من الأجر)، وفي تدريبات الموسيقا (نغمات النعمة [Grace Notes]). وجعلَني هذا أحاول أن أدقِّق النظرَ أكثر؛ لأنَّ كلَّ هذه الاستخدامات للكلمة هي استخدامات إيجابيَّة وجاذبة، لكنْ كثيرًا ما يوصَمُ المسيحيُّون بسمعة سيِّئة. يظنُّ الناس في المسيحيين أنَّهم متزمِّتون وديَّانون. وكان غريبًا أنَّ النعمة أتَتْ لتنقُلَ صورةً عكسَ قصدِ الله، حيث إنَّها تُعاش بواسطتنا. ومن هناك بدأ يتشكَّل كتاب "**ما أعجب النعمة**" *(What's So Amazing About Grace?)*.

لكَمَ أتمنَّى لو استطعتُ أن أصرِّح قائلًا: "فلأُخبرْك بخُطَّتي العَشْرية، عن خُطَّتي للتعبير عن إيماني في إطار ثقافة ما بعد الحداثة". في الواقع، أنتقلُ من موضوع إلى موضوع بحسب ما يُثير ضيقي في ذلك الوقت. وعندما أنظر إلى الوراء، أرى مواضيع تتكرَّر على مرِّ السنين، مثل الألم والنعمة. وأيضًا أرى كتاباتي تدور من حوافِ الإيمان متَّجهةً نحو المركَز. وإذا تأمَّلتَ مواضيع كتبي الأخيرة تجد أنَّها عن يسوع والنعمة والصلاة- جميعها أمورٌ مركَزيَّةٌ في الإيمان.

إذا كان أحَدُهم قد اقترح منذ عشرين عامًا مثلًا أنِّي سأؤلِّفُ كتابًا عن الصلاة، لضَحِكتُ ملءَ الفم. لقد احتاجَ الأمر إلى سنوات عدَّة لأستشعرَ الرغبةَ في اكتشاف مثل هذه الموضوع. وأقول إنِّي استشعرتُ الرغبة وليس المقدرة. لقد انتهجتُ في هذا الكتاب أيضًا حسًّا صحفيًّا، وأتيتُ بقائمة من الأسئلة لأولئك الذين ربما يستطيعون تقديم بعض الإجابات. إنَّ لدينا ميِّزةً لا تُقدَّر وهي التواصل مع إله الكون، لكنَّ الصلاةَ تظلُّ لكثيرين طَقْسًا مملًّا وغير مفهوم في الحياة. هل يمكن تغيير ذلك؟ هل أومنُ حقًّا بالصلاة؟ بدأت بطرح أسئلة كهذه، وقادتني إلى كتاب.

أنا في الواقع أكتبُ كتبي لنفسي. أتناول موضوعًا يؤرِّقني وأغوص فيه، دون أن أدري أين سأظهر على السطح. ربَّما يغوص شخصٌ آخرُ خلفي، لكنِّي عندما أؤلِّفُ الكتابَ، أكون بمفردي تمامًا، أصارعُ القضايا وأسوقُ قطعان الكلمات (وهي مثل الحيوانات الصغيرة، تحاول

الهروب). لقد أمدَّتني الكتابة بطريقةٍ لتفعيل إيماني كلمةً بكلمة. وما أدهشَني أنَّ كلماتي ساعدت على تشجيع آخرين في إيمانهم.

في الماضي أيَّام السيجار الملفوف بالأيدي، كان في كوبا تقليدُ استئجار قُرَّاء يقرأون للعمَّال. وبينما هم يعملون في صَمْتٍ، كانوا يسمعون ساعةً بعد ساعةٍ الأعمال الأدبيَّة تُقرأ بصوتٍ مسموع. لقد كان هذا يساعد على مرور الوقت، كما لاحظ المشرفون أنَّه يرفع أيضًا من معنويَّات العاملين. استمتعَ العاملون بلفِّ السيجار برواية "**كونت مونتي كريستو**" *(The Count of Monte Cristo)* حتَّى إنَّهم راسَلوا الكاتب ألكسندر دوما (Alexander Dumas) ليسمح لهم بتسمية أحد أنواع السيجار باسْم روايته، وهذا هو أصل تسمية السيجار "مونتيكريستو" (Montecristo) الذي لا يزال مشهورًا اليوم. أشكُّ إنْ كان دوما يفكِّر أنَّه سيكون من بين قرَّائه عمَّالُ مصنع للفِّ السيجار في كوبا، لكنَّ إمكانيَّة صياغة الأفكار والمشاعر في كلمات سمحت له بأن يعبر المحيط ويدخل لغةً أخرى، ويزور مكانًا بعيدًا عنه بآلاف الأميال.

تسمح الكلمات للكاتب بأن يقفز فوق أكثر من هُوَّة فاصلة، ويدخل في وعي بشر آخرين. إنَّ الصفقة التي تُبرَمُ ما بين الكاتب والقارئ عادةً ما تحدُثُ في السِّرّ، في مكان وزمان غير معلومَين للشخص الذي أبرمَها. لم أرَ يومًا شخصًا في أثناء قراءته أحَدِ كُتُبي، لكنِّي كثيرًا ما أسمع من القرَّاء الذين يؤكِّدون لي أنَّهم يقرأون. وأنا أتمنَّى أنَّ شيئًا ممَّا أكتب قد يعطي شعورًا بالرِّفقة والاستئناس لمن يَشُكُّون، وتعزية لمن يُعانون، ونِعمة لمن لم يحصلوا على الكثير منها في كنائسهم.

ذات مرَّة تلقَّيتُ رسالةً من إندونيسيا مكتوبةً بإنكليزيَّة ركيكة: "لقد كنتُ أقرأ كتابك «**يسوع الذي لم أكن أعرفه**» *(The Jesus I Never Knew)*. هذه بركات حقيقيَّة. أقرأها ثلاث مرَّات. في مرَّات كثيرة لم أستطع النوم ليلًا وأنا أفكِّر في ما كتبتَه. إنَّ كتابك يساعدني أن أرى يسوع، ليس فقط بوصفه شخصًا عاش ومات على الأرض منذ ٢٠٠٠ سنة، بل بوصفه شخصًا حقيقيًّا قام من الأموات منذ ٢٠٠٠ سنة، ولا يزال مُتاحًا اليوم".

في رحلة إلى لبنان عام ١٩٩٨م، قابلتُ امرأةً قالت لي إنَّها قرأت كتابي "**عندما لا تُمطر السماء**" في أثناء الحرب الأهليَّة اللبنانيَّة. كانت تحتفظ به في ملجأ تحت الأرض يختبئون فيه من الغارات. عندما كانت تشتدُّ نيران المدفعيَّة حول شقَّتها الكائنة في طابقٍ مرتفع، كانت تنزل على الأدراج المظلمة بالاستعانة ببطَّارية صغيرة لتصلَ إلى الملجأ، وهناك تضيء شمعة وتبدأ تقرأ كتابي. لا أستطيع أن أصفَ مدى شعوري بالتأثُّر لما سمعتُه منها. ففي اللحظة التي

كان فيها المسيحيُّون يموتون في سبيل إيمانهم؛ وعندما كانت أجمل مدينة في الشرق الأوسط تُحالُ أنقاضًا، سافرَتْ كلماتٌ كتبتُها في شقَّتي في شيكاغو إلى هناك لتعزِّي امرأةً خائفة.

سيِّدةٌ أخرى من بيروت كتبت عن الكيفيَّة التي ساعدَها بها كتابي "**ما أعجب النعمة**" لتغيِّرَ موقفَها من مقاتلين سرقوا شقَّتها. أقرأ هذه الرسائل، وأفكِّر في نفسي قائلًا: **لقد كان في ذهني المرض المزمن، وليس الحرب الأهلية. وما كُنت أصارع لاحتماله، كان الجيران الذين يشغِّلون الموسيقا بصوت عالٍ وليس مقاتلين في الحرب الأهليَّة اللبنانيَّة الذين يقتحمون الشقق دون استئذان. ومرَّة تلو الأخرى يُدهشني الله عندما يستخدم كلماتٍ كتبَتْها ذاتي غير النقيَّة، بدوافعها المختلطة لتُثمر بوسائلَ ما كنتُ لأتخيَّلها.**

قال لي صديقٌ ذات مرَّة: "الكلمات التي تكتبها والكُتُب التي تَنشُرُها، مثل أولادك. تفعل معهم أفضل ما تستطيع، لكنْ في النهاية لا تستطيع إلَّا أن تتركهم يعيشون حياتهم الخاصة بطريقتهم، فيذهبون إلى حيث يريدون، ويؤثِّرون كيفما يريدون". كم أنَّ هذا حقيقيٌّ!

يجمعُ هذا الكتاب مختارات من "أولادي وبناتي" الذين كُتِبوا على مدار عقود عدَّة، وظهروا في اثنين وعشرين كتابًا، وخمسٍ وأربعين مقالة، علاوة على بعض الفِقرات غير المنشورة. وعندما أراجع هذه المختارات، فإنِّي أشعر بالعرفان على امتياز العمل بالكلمات التي تستطيع أن تصل إلى أماكن لم أفكِّر بتاتًا بالوصول إليها.

قال أحد الطلبة الذي كان سي. أس. لِويس يعطيه دروسًا في فيلم "**أراضي الظلال**" *(Shadowlands)*: "إنَّنا نقرأ كي نعرف أنَّنا لسنا وحدَنا"، وهذا حقيقيٌّ. ومَن يكتبون منَّا، يفعلون ذلك آملين ألَّا نكونَ وحدنا.

فيليب يانسي، كولورادو، ربيع ٢٠٠٩م

ملاحظةٌ للقارئ

يجمع هذا الكتاب ٣٦٦ قراءة مأخوذة من كتابات فيليب يانسي. وقد حُرِّرت كلُّها لتكونَ متساوية في الطول تقريبًا، علاوةً على بعض التعديلات التحريريَّة التي أُجرِيَتْ على بعضها كي تصيرَ أكثر وضوحًا.

القراءات التي توافق بعض التواريخ ذات الدلالة تحاول أن تخاطبَ الحدثَ الذي تشير إليه التواريخ (مثلًا ١١/٩)، وبعض الموادِّ ذات الصلة يمكن أن نجدَها متزامنة مع تواريخها (مثلًا، تميل الموادُّ ذاتُ المدلول السياسيِّ لأن تكونَ قريبةً من تاريخ الانتخابات، والموادُّ المتعلِّقة بعيد الميلاد تظهر في شهر كانون الأوَّل/ديسمبر...إلخ). وكذلك تتبعُ بعض القراءات الرزنامة الكنسيَّة، وهذا قد يُحدِثُ مشكلةً؛ فتواريخ بعض المواسم الكنسيَّة تختلف من سنة ميلاديَّة إلى أخرى. لذلك وضعنا هذه الموادَّ بصورةٍ تقريبيَّة لتكونَ قريبةً من التواريخ حيث يُحتمَلُ إقامتها. مثلًا، القراءات التي تشير إلى موت يسوع، تبدأ في الظهور من الثالث عشر من آذار/مارس وتستمر حتَّى مطلع شهر نيسان/أبريل.

والوضع المثاليُّ يقترحُ أنَّ على القارئ الذي يتبع رزنامةَ الكنيسة أن يبدأَ هذه القراءات قبل عيد القيامة بأسبوعَين، متخطِّيًا إلى الأمام إلى قراءاتٍ تالية حتَّى يصل إلى التاريخ المنشود. بالمثل، فإنَّ قراءةً بخصوص الصعود ومجموعة من القراءات الخاصَّة بيوم الخمسين وُضِعَتْ في الخامس من أيَّار/مايو، ومن ١٥–١٨ أيَّار/مايو، حتَّى لو اختلفَتِ التواريخ الفعليَّة من سنة إلى أخرى.

هناك في نهاية الكتاب، هوامش وصفيَّةٌ تعطي معلومات إضافيَّة عن المصادر الأصليَّة لهذه الاقتباسات.

حجر رشيد

خُذ خطوة إلى الوراء قليلًا وتأمَّل الأمر من وجهة نظر الله. لكَونِهِ روحًا لا يحدُّه الزمان أو المكان، اقترض الله من وقتٍ إلى آخر أشياءَ ماديَّة، مثل عُلَّيقة مُشتعلة وعمودٍ من نار، لكي يتركَ انطباعًا واضحًا على كوكب الأرض. وفي كلِّ مرَّة، كان الله يتَبنَّى شيئًا لوقتٍ مُحَدَّدٍ كي يُرسِل رسالة به، ثمَّ يتخطَّاه. أمَّا في يسوع، فقد حدث أمرٌ جديد: أصبح الله واحدًا من مخلوقات الأرض؛ حَدَثٌ غير مسبوق، ولا شبيه له، وفريد تمامًا.

الله الذي يملأ الكون، اخترق ذلك الكون لكي يصبح طفلًا في بيئة زراعيَّة بسيطة. وحاله حال كلِّ الأطفال الرُّضَّع، كان عليه أن يتعلَّم المشي والكلام وارتداء ملابسه بنفسه. في التجسُّد، "أعاق" ابن الله عَمدًا نفسه، مُستبدلًا بالمعرفة الكُلِّيَّة دماغًا بشريًّا تَعَلَّمَ أصوات اللهجة الأراميَّة صوتًا صوتًا، واستبدل بالحضور الكامل، ساقين بشريَّتين لا يحملانه بعيدًا واستبدل به أحيانًا حمارًا. كما استبدل بالقوَّة الكُلِّيَّة ذراعَين يقويان على نَشرِ الخشب، لكن لا يقويان على الدفاع عن النفس. وبدلًا من أن يمتدَّ بصره ليرى مئة مليار مجرَّة في الوقت نفسه، لم يصل بصره لأبعد من الزقاق الضيِّق في قريته في الناصرة، أو كُومة من الحجارة في صحراء اليهوديَّة القاحلة، أو شارع مزدحم في العاصمة أورشليم.

وبفضل يسوع، فإنَّنا لا نتشكَّك في رغبة الله في العلاقة بالبشر. هل يريد الله بالفعل اتِّصالًا حميمًا بنا؟ لقد تخلَّى يسوع عن السماء ليؤكِّد ذلك. وبصورة شخصيَّة، أسَّس الجسر الذي يصل الله بالبشر، بين العالم المرئيِّ والعالم غير المرئيّ.

يُشبِّه ريتشارد نيبور (H. Richard Niebuhr) إعلان الله في المسيح بحجر رشيد تشبيهًا دقيقًا؛ فقبل أن يُكتَشَف هذا الحجر، لم يستطع الدارسون سوى أن يحزروا معاني الرسوم الهيروغليفيَّة. لكن في يومٍ تاريخيٍّ لا يُنسى، اكتُشِف هذا الحجر الأسود الذي كُتِبَ عليه النصُّ ذاته بثلاث لغات مختلفة. وبمقارنة الترجمات جنبًا إلى جنب، استطاع العلماء إتقان اللغة الهيروغليفيَّة، واستطاعوا أن يروا بوضوح ما كانت رؤيته ضبابيَّة في السابق.

ويستمرُّ نيبور ليقول إنَّ يسوع أتاح لنا أن "نعيد بناء إيماننا"؛ إذ يمكننا أن نثق بالله لأنَّنا نثق بيسوع. وإذا شكَّكنا في الله، أو وجدناه غير مفهوم، وغير قابل للإدراك، فإنَّ أفضل علاج هو أن نتفرَّس في يسوع مباشرة، حجر رشيد الإيمان.

من كتاب: محاولة اللقاء مع إله غير منظور

٢ كانون الثاني/يناير

العدسة المُكبِّرة للإيمان

إنَّني أيضًا أتصوَّر أن يسوع أشبه "بالعدسة المُكبِّرة" لإيماني، وهذه عبارة تحتاج إلى بعض الشرح. أفخَرُ أنَّني أمتلك قاموس أكسفورد للغة الإنكليزيَّة، الذي يحتوي على كلِّ كلمة في اللغة الإنكليزيَّة. وبانتمائي إلى إحدى رابطات الكتابة، حصلت على نسخة من القاموس موجودة في كتاب واحد مقابل ٣٦,٩٥ دولارًا فقط. وتحتوي النسخة على نصِّ القاموس بأكمله، لكن مع عيب واحد: أنَّ حجم الكتابة صغير جدًّا، حتَّى إنَّه لا أحدَ يستطيع قراءته بالعين المجرَّدة، ممَّا اضطُرَّني إلى شراء عدسة مكبِّرة ممتازة من النوع الذي يستخدمه العاملون في مجال الجواهر النفيسة، وهي بحجم الطبق الكبير، ومُركَّبة على حاملٍ دوَّار. وباستخدام هذه العدسة، مع مساعدة عدسة أخرى أصغر تُمسك باليد، يمكنني أن أدخل عالم الفروق شديدة الدقَّة بين ألفاظ اللغة الإنكليزيَّة.

لقد تَعَلَّمتُ الكثير عن العدسات المُكبِّرة في أثناء استخدام قاموسي؛ فعندما أسلِّط العدسة على الكلمة، فإنَّها تبدو واضحة ونَضِرَة في المنتصف، أي في البؤرة، لكن تصير الكلمات مشوَّشة أكثر فأكثر كلَّما اتَّجاهنا من المركز إلى الأطراف. وبصورة موازية، فإنَّ يسوع صار بؤرة إيماننا، لذا أتعلَّم باستمرارٍ أن أُحافظ على عدسة إيماني مُركَّزةً عليه.

لقد عشت على الأطراف كثيرًا في رحلتي الروحيَّة، وكذلك في مهنة الكتابة، أتأمَّل أسئلة لا يمكن إجابتها عن مشكلة الألم، وغموض مفهوم الصلاة، والتدبير الإلهيِّ في مقابل الإرادة الإنسانيَّة الحرَّة، وغيرها من الأمور. وعندما أفعل ذلك، تصبح رؤيتي مشوَّشة. وفي تلك الأحوال، عندما أنظر إلى يسوع، يعود كلُّ شيء إلى سابق وضوحه.

أعترف أنَّ الكثير من العقائد المسيحيَّة المُستقرَّة تضايقني؛ فماذا عن الجحيم؟ وماذا عن الذين ماتوا ولم يسمعوا رسالة المسيح؟ وأعود إلى إجابة الأسقف أمبروز (Ambrose)، الذي أثَّر في حياة القدِّيس أغسطينوس، الذي سُئِل راقدًا على فراش الموت، إن كان يخاف مواجهة دينونة الله. أجاب أمبروز مبتسمًا: "إنَّ لدينا سيِّدًا صالحًا". وهكذا فإنَّني أتعلَّم أن أثق بالله في شكوكي وصراعاتي وذلك بأن أحاول أن أعرف يسوع. قد يبدو ذلك نوعًا من التمَلُّص من المواجهة، لكنَّني أعتقد أنَّه يعكس محوريَّة يسوع في كلِّ كتابات العهد الجديد. علينا أن نبدأ به ليكونَ نُقطَة مِحوَرِيَّة نتحرَّك منها إلى الأطراف.

بالنظر إلى يسوع، أحصل على بصيرة نحو الله وما يشعر به حيال ما يحدث هُنا في الأسفل؛ إذ إنَّ يسوع يعبِّر عن جوهر الله بطريقة لا نستطيع أن نُسيء تفسيرها.

من كتاب: محاولة اللقاء مع إله غير منظور

٣ كانون الثاني/يناير

اقتراب اللّه

ما الفرق الذي أحدثه يسوع؟ من جهتنا ومن جهة الله، أتاح يسوع نوعًا من الحميميَّة لم يكن موجودًا من قبل. في العهد القديم، كان من يلمس تابوت العهد من بني إسرائيل يسقط ميتًا؛ لكن من كانوا يلمسون يسوع، ابن الله الذي جاء في الجسد، كانوا يُشفون. اليهود الذين لا يسمحون لأنفسهم أن ينطقوا أو حتَّى يَتَهَجَّوا حروفَ اسم الله، علَّمهم يسوع طريقة جديدة بها يخاطبون الله: أبا أو "بابا". لقد اقترب الله في يسوع كما لم يقترب قبلًا.

في كتاب اعترافات القدِّيس أغسطينوس، يصف أغسطينوس كيفيَّة تأثُّره بهذا القُرب الإلهيّ؛ إذ كان قد تعلَّم من الفلسفة اليونانيَّة أن الله كاملٌ وغير محدود، خارجٌ عن الزمن وغير قابل للفساد، لكنَّ أغسطينوس لم يفهم كيف يمكن أن يدخلَ شخص مهووس بالجنس وغير منضبط مثله في علاقة بالله. جرَّب أغسطينوس مذاهب وفلسفات عدَّة كانت شائعةً في عصره لكنَّها لم تُشبعه، حتَّى قابل في النهاية يسوعَ بحسب الإنجيل، الجسر الممتدَّ بين إنسانٍ عاديٍّ، والإله الكامل القدُّوس.

تكشف الرسالة إلى العبرانيِّين هذه الخطوة المُبهرة لتحقيق الحميميَّة مع الله، فيسرد الكاتب في البداية ما كان مطلوبًا ممَّن يطلبون الاقتراب إلى الله في زمن العهد القديم: مرَّة في السنة، في يوم الكفَّارة، يستطيع شخص واحد، وهو رئيس الكهنة، أن يدخل قدس الأقداس. وكان هذا الطقس يتضمَّن اغتسالًا طقسيًّا عدَّة مرَّات، وملابس خاصَّة، وخمس ذبائح حيوانيَّة منفصلة. ومع كلِّ ذلك، كان رئيس الكهنة يدخل قدس الأقداس في رُعب شديد لابسًا أجراسًا في ثوبه، رابطًا حبلًا حول كاحله حتَّى إذا مات وتوقَّف صوت الأجراس، يسحب الكهنة الآخرون جثَّته بذلك الحبل.

أمَّا الرسالة إلى العبرانيِّين فتقدِّم مقارنة حَيَّة: نستطيع الآن أن "نتقدَّم بثِقة إلى عَرشِ النعمَة" بلا خوف. الجرأة بالتقدُّم إلى قدس الأقداس، صورةٌ لا مثل لها في إصابة القارئ اليهوديِّ بالذهول. لكن عندما مات يسوع، انشقَّ حجاب الهيكل من أعلى إلى أسفل، فاتحًا الطريق إلى قدس الأقداس. لذلك فإنَّ كاتب العبرانيِّين يكتب تبعًا لذلك قائلًا: "لنتقدَّم بثقة إلى الله".

هذا ما يُسهم به يسوع في مشكلة الإحباط نحو الله: بفضله، نستطيع أن نأتي إلى الله مباشرةً. لا نحتاج إلى وسيط بشريٍّ؛ لأنَّ الله نفسه صار الوسيط إلى نفسه.

من كتاب: عندما لا تمطر السماء

٤ كانون الثاني/يناير

يسوع البروزاك

تُرى كيف تكون نتائج يسوع إذا أجرى اختبارًا للشخصيَّة؟

تختلف الشخصيَّة التي تظهر لنا في صفحات الإنجيل بصورةٍ جذريَّة عن تلك التي كنت أسمع عنها بينما كنتُ أكبُرُ. إنَّها الصورة التي ألاحظها في بعض من أفلام هوليود القديمة عن يسوع. في هذه الأفلام، كان المُمثِّل الذي يؤدِّي شخصيَّة يسوع يُرَدِّد الحوار الخاصَّ به بصوت منتظم النبرة دون أيِّ مشاعر، ويعيش الحياة كشخصيَّة هادئة وسط

شخصيَّات مهتاجة متطرِّفة، لا شيء يزعجه، ويُقَدَّمُ الحكمة بصوت مُسطَّح، ونبرة صوت محسوبة. إنَّه ما يمكن أن يُطلق عليه يسوع البروزاك.[١]

على العكس من ذلك، فإنَّ الأناجيل تقدِّم لنا يسوع رجلًا ذا "كاريزما" قويَّة تجعل الجموع يجلسون حوله ليستمعوا إليه على مدى ثلاثة أيَّام بلا توقُّف وبطونهم خاوية. يسوع الأناجيل يتحرَّك بحماسة ووَجدٍ إذ نراه "يتحنَّن" على الجموع. وتكشف الأناجيل عن طيف واسع من مشاعر يسوع: تعاطُف مفاجئ مع شخص مصاب بالبرص، تَهَلُّل بالفرح لنجاح تلاميذه، نوبة غضب نحو الفرِّيسيِّين متحجِّري المشاعر، نَوح على مدينة لم تقبل رسالته، صرخات ألم شديد في جثسيماني وعلى الصليب.

حضرت ذات مرَّة خلوة تنظِّمها إحدى حركات خدمة الرجال، وكانت حول "التلامس مع المشاعر" والخروج من الأنماط المتحفِّظة للذكورة التقليديَّة. وبينما كنت أستمع للرجال يشاركون قصص صراعاتهم للتعبير عن أنفسهم واختبار الحميمة والاستئناس بعضهم بعضٍ، لاحظت كيف أنَّ يسوع عاش حالة من الإشباع الذكوريِّ المثاليِّ، ما زال البشر يصارعون بعده بتسعة عشر قرنًا لكي يصلوا إليها؛ ففي ثلاث مرَّات، على الأقلّ، بكى يسوع أمام تلاميذه، كما لم يُخفِ مخاوفه ولم يتردَّد في طلب المساعدة، فقال لتلاميذه: "نفسي حزينة جدًّا حتَّى الموت". وأضاف: "اسهروا معي". كم قائدًا قويًّا في عصرنا يجعل نفسه مكشوفًا لهذه الدرجة؟

لقد كان يسوع يتواصل بصورة حميمة وسريعة مع من يقابلهم من الناس. سواء كان يتكلَّم مع امرأة عند بئر، أم مع قائدٍ دينيٍّ في حديقة، أم مع صيادٍ على بُحيرة. كان يدخل مباشرة إلى لبِّ الموضوع، وسرعان ما كان هؤلاء الناس يكشفون ليسوع أعماق حياتهم وأسرارهم. لقد كان يسوع يستدعي جوعًا عميقًا من قلوب الناس، حتَّى إنَّهم كان يتجمهرون حوله فقط ليلمسوا ثوبه.

من كتاب: يسوع الذي لم أكن أعرفه

---

١) البروزاك هو عقار مضادٌّ للاكتئاب يجعل الإنسان هادئًا بصورة استثنائيَّة.

٥ كانون الثاني/يناير

الرؤية الجديدة

لكي آخذ التكليف الإلهيَّ على محمَل الجِدّ، علَيَّ أن أتعلَّم أن أنظر إلى العالم بصورة تختلف عن السائد والمألوف، وذلك كما فعل يسوع. وبدلًا من أن أبحث عن الناس الذين يرفعون معنويَّاتي ويؤكِّدون ذاتي، أبحث عمَّن يحتاجون إلى رفع معنويَّاتهم وتأكيد ذواتهم. وبدلًا من التقرُّب إلى الشخصيَّات المهمَّة من أصحاب الموارد لكي يؤدُّوا لي خدمات، أبحث عن الأشخص ذوي الموارد المحدودة؛ وبدلًا من الأقوياء، أبحث عن الضعفاء، والمرضى بدلًا من الأصحَّاء. أليس بهذه الطريقة يصالح الله العالم لنفسه؟ ألم يؤكِّد يسوع أنَّه جاء من أجل الخطاة لا الأبرار؟ من أجل المرضى لا الأصحَّاء؟

يقول مؤسِّس بيوت "الفُلك" (L'Arche) لإعاشة المعاقين ذهنيًّا وتأهيلهم، جان ڤانيير (Jean Vanier) إنَّ الناس ينظرون إليه كأنَّه مجنون، فهو ابن الحاكم العامِّ لكندا الذي تلقَّى تعليمًا ممتازًا، والذي يعيِّن عاملين مؤهَّلين تأهيلًا عاليًا (كان الراهب هنري نوين [Henri Nouwen] واحدًا منهم) لخدمة الأشخاص المعاقين والعَيش وسطهم. أمَّا ڤانيير فيتجاهل منتقديه ويقول إنَّه يفضِّل أن يكون مجنونًا يتبع جهالة الإنجيل على أن يتبع تفاهة قِيَم العالم. علاوةً على ذلك، فإنَّ ڤانيير يصرُّ على أن يحصل الخدَّام أيضًا على فائدة، لا أن يحصل عليها فقط من يخدمونهم. فالمعاقون، مهما كانت درجة إعاقتهم، يتجاوبون مع الحبِّ بصورةٍ فِطريَّة، وعندما يفعلون ذلك فإنَّهم يوقظون أهمَّ ما في الإنسان: الرحمة والسخاء والتواضع والمحبَّة. وهكذا فإنَّهم يُشبعون بالحبِّ من يقدِّمون لهم الحبَّ، ويخدمون من يخدمونهم.

استمتعت في الهند مرَّةً بالعبادة بين مرضى الجذام (البرص). ويجدر بالذكر أنَّ أغلب الأبحاث المتقدِّمة التي جرى التوصُّل إليها في مجال علاج الجذام جاءت نتيجة لعمل الأطبَّاء المُرسلين، الذين كانوا وحدهم راضين أن يعيشوا بين هؤلاء المرضى، ويخاطرون بتعريض أنفسهم لهذا المرض الخطير. ونتيجة لذلك، فإنَّ الكنائس كانت تزدهر في أغلب المراكز الكبيرة لعلاج الجُذام.

كما زُرت في ميانمار بيوتًا لإعالة من فقدوا أسرهم بسبب مرض نقص المناعة المكتسبة (الإيدز)، حيث يحاول المتطوِّعون المسيحيُّون أن يعوِّضوا هؤلاء الأطفال الحنان الذي سرقه منهم

هذا المرض. وفي مركز جان ڤانيير في تورنتو، شاهدت قسًّا حاصلًا على شهادة عليا في اللاهوت، يقدِّم رعاية يوميَّة لرجل معاق ذهنيًّا في منتصف العمر لا يستطيع أن يتكلَّم كلمة واحدة. كما أنَّ مِن أكثر الخدمات الكنسيَّة التي حضرتها حماسة وتأثيرًا، تلك التي حضرتها في سجون تشيلي وپيرو. فبين البسطاء والمهمَّشين والمكسورين والمرفوضين، يتأصَّل حضور الله.

من كتاب: إشاعات من عالم آخر

٦ كانون الثاني/يناير

وجبات فخمة لمصلحة الفقراء

بدأ مارسيل روسِل (Marcel Roussel) عمله سنة ١٩٤٩م وسط البيئة الفقيرة التي خلَّفتها الحرب العالميَّة الثانية في فرنسا، وكان مُتأثِّرًا بالأعداد الكبيرة من البشر التي لم تلمس الكنيسة حياتهم وصل روسِل إلى قناعة بأنَّ الكنيسة، بدلًا من أن تبقى في مكانها، يجب أن تذهب إلى المحتاجين، ولا سيَّما في أماكن العمل. ألم يكُن يسوع نجَّارًا وبولس صانع خيام؟ وخَلُصَ روسل إلى هذه الحقيقة: أنَّنا في كلِّ مكان، في السجون وفي الفنادق وفي كلِّ مواقع العمل، يمكننا أن نبدأ حوارًا مع الله. ولتحقيق هذا الهدف عيَّن روسِل مجموعة من النساء الشابَّات للعمل من أجل ذلك الهدف بصفة مرسلات في أماكن العمل.

في البداية، التحقت هؤلاء النساء بأعمالٍ في المصانع، وكُنَّ يجتمعن معًا للصلاة والدراسة. لكن بعد عدَّة سنوات، فكَّر الأب روسِل في فتح مطعم فيه تعيش هؤلاء المُرسلات ويعملنَ و"يُنِرن كأنوارٍ في العالم". كان أوَّل مطعم من هذا النوع باسم "الماء الحيّ" (L' Eau Vive) وقد افتُتح سنة ١٩٦٠م، وسرعان ما قاد نجاحه إلى افتتاح فروع أخرى، مثل مطعم "الماء الحيّ" (Agua Viva) في ليما، وقد تناولتُ العشاء فيه ضِمن زيارة لي هناك سنة ١٩٨٧م. وبدأ هذا المطعم يجتذب الأغنياء وأصحاب التأثير والنفوذ في ليما. كما توجد بعض الإشارات التي تعلن للزائر القصدَ الروحيَّ للمطعم؛ حيث كُتِب على الغلاف الداخليِّ لقائمة الطعام: "يسوع حيٌّ! ولذلك نحن سعداء". وكلُّ مساء، في الساعة العاشرة والنصف تمامًا، تأتي النادلات معًا ليغنين ترنيمة تعبُّديَّة مسائيَّة للضيوف.

علاوةً على هذه الإشارات، تقول الأخت ماري (Marie)، إنَّ العمل نفسه يجب أن يكون هو الشهادة. وتقول: "لا تسألنا عن حياة الصلاة الخاصَّة بنا، انظر إلى الطعام الذي نقدِّمه. هل طبقك نظيف ومُرتَّب بعناية؟ هل يعاملك النادل باحترام ومحبَّة؟ هل تشعر بالسكينة في هذا المكان؟ إن كان الأمر كذلك، فنحن نخدم الله".

وبروح الأخ لورنس (Brother Lawrence)، فإن الخدَّام يطهون، ويخدمون الموائد، وينظِّفون الأرضيَّات، ويعبدون- كلُّ ذلك لمجد الله. لكنَّ العاملات المرسلات أدخلن إضافة جديدة، فهنَّ يقدِّمن وجبات طعام فاخرة، ومن الربح يخدمون الأطفال الفقراء في ليما. لذلك تجد أنَّه في وقت لاحِق من اليوم نفسه، تمتلئ القاعة الأنيقة نفسها بالأمَّهات من الأحياء الفقيرة في ليما حيث يتلقَّين تعليمًا عن أساسيَّات النظافة الشخصيَّة، وتربية الأطفال، والصحَّة الجسديَّة والروحيَّة. وبمجرَّد انتهاء عمل كلِّ أفراد الفريق في المطعم، يكرِّسون أنفسهم لخدمة الفقراء، وتطبيق برامج التنمية المجتمعيَّة التي تُموَّل من أرباح المطعم.

"وجبات فاخرة لمصلحة الفقراء"، مجلَّة المسيحيَّة اليوم، ١٥ كانون الثاني /يناير ١٩٨٨م

٧ كانون الثاني/يناير

نوال حياة

"يتمجَّد الله في الإنسان الذي يحيا بصورة كاملة". قال هذه العبارة لاهوتيُّ القرن الثاني للميلاد القدِّيس إيرينايوس، لكن للأسف لا تعكس هذه الصورة حال كثيرين من المسيحيِّين المعاصرين. سواء كان ذلك حقيقيًّا أم لا، فإنَّ المجتمع[٢] يرانا بوصفنا مجموعة من المتزمِّتين المكبوتين- أناسًا لا يعنيهم الاحتفال بالحياة، بل كُلُّ هَمِّهِم الإشارة بإصبع الاعتراض.

من أين حصل المسيحيُّون على سُمعة من يكرهون الحياة ويريدون تقليصها بدلًا من تحسينها؟ يسوع نفسه وعد قائلًا: "أمَّا أنا فقد أتيتُ لكي تكون لهم حياة وليكون لهم أفضل [حياة فَيَّاضة]". ما الذي يمنعنا من تحقيق الحياة الفيَّاضة؟

٢) المقصود هو المجتمع الأميركيُّ ونظرته إلى المسيحيِّين المؤمنين المحافظين (المترجم).

قرَّر الكاتب فريدريك بوشنر (Fredrick Buechner) ذات مرَّة أن يستخدم مواهبه الأدبيَّة ليستكشف حياة القدِّيسين. أوَّل ثلاثة قدِّيسين اختارهم هم برندان (Brendan) وغودريك (Godric) والشخصيَّة الكتابيَّة يعقوب. لقد أدهشته هذه الشخصيَّات؛ لأنَّه كلَّما بحث في حياتهم، اكتشف أشياء مخفيَّة. وتساءل: ما الذي جعل هذه الشخصيَّات الثلاث تتمتَّع بالقداسة؟ وفي النهاية، استقرَّ على الكلمات التالية ليصفهم بها: أنَّهم كانوا ممَّن "يبثُّون الحياة" في الذين حولهم. لقد كانوا شخصيَّات حماسيَّة، تحيا من قلبها، وتُخاطِر بشجاعة، وهكذا كانوا يزيدون مَن حولهم شعورًا بالحياة.

عندما استمعت إلى بوشنر يقدِّم هذا التعريف للقداسة، تذكَّرت مباشرة صديقي بوب (Bob) الذي كان والداه يشعران بالقلق حيال حياته الروحيَّة لأنَّه لا يقضي سوى وقتٍ قليلٍ "مع الكلمة" وفي الكنيسة. لكنَّني لم أقابل إنسانًا يتمتَّع بالحيويَّة مثله؛ فقَدْ كان يرعى الحيوانات الضالَّة، ويقوم بخدمات نجارة لأصدقائه، ويتسلَّق الجبال، ويقفز بالمظلَّات تعلَّم الطبخ، وبنى منزله بنفسه. وبالرغم من أنَّ بوب نادرًا ما يستخدم الكلمات الدينيَّة، فقد لاحظتُ أنَّ كلَّ مَن حوله يحبُّونه، بمن فيهم أنا، وكان كلُّ مَن يقضي وقتًا معه يشعر بأنَّه أكثر حيويَّة. لقد كان يشعُّ فرحًا في العالم، واحتفالًا بالحياة مثلما يمكِنُك أن تعتقد أن الله يشعر تجاه العالم الذي خلقه. وعلى الأقلِّ باستخدام تعبير بوشنر، لقد كان بوب قدِّيسًا.

لقد عرفت كثيرين ممَّن ينتمون إلى ذلك النوع من المسيحيِّين، الذين يَبُثُّونَ حَياةً في الذين حولهم. كان مكتشف اختبار الشوكة (Tine) للكشف عن السلِّ، مسيحيًّا مشيخيًّا تقيًّا اسمه جاك ماكونيل (Jack McConnell)، كما أنَّه ساعد في تطوير عقار التايلينول والتصوير بالرنين المغناطيسيِّ (MRI). وفي النهاية، قرَّر أن يكرِّس تقاعده لتوجيه جهود زملائه من الأطبَّاء المتقاعدين لعمل عيادات لتقديم الخدمة الطبِّيَّة للفقراء. وفي ما وراء البحار، تعرَّفت إلى مرسَلين يصلِحون مركباتهم بأنفسهم، ويجيدون عدَّة لغات، ويدرسون النباتات والحيوانات المحلِّيَّة، ويعطون المرضى الحُقَن في غياب الأطبَّاء. وعادة ما لا يشعر هؤلاء الأشخاص الذين يَشِعُّون بالحياة، بالانتماء المريح إلى الكنائس الأميركيَّة الكبيرة. لكنَّهم الأكثر تمثيلًا للحياة الفيَّاضة التي وعد بها المسيح.

عمود "الصفحة الخلفيَّة"، مجلَّة المسيحيَّة اليوم، ٢٣ تشرين الأوَّل/أكتوبر ٢٠٠٠م

٨ كانون الثاني/يناير

أصعب مهنة في العالم

تناولت العشاء ذات مرَّة في بيت أحد المنتمين إلى جماعة الآميش (Amish)، حيث سمعت منهم عن طريقتهم الفريدة في اختيار راعٍ لكنيستهم. في ذلك الجزء من البلاد، قليلون جدًّا من الآميش يحصلون على تعليم يتجاوز الصفَّ الثامن (الإعداديَّ)، كما لا يحصل أيٌّ منهم في الغالب على تعليم أو تدريب لاهوتيّ. لاختيار الراعي، تصوِّت كلُّ الرعيَّة على أسماء الأشخاص الذين لديهم إمكانيَّة رعويَّة، وكلُّ من يحصل على ثلاثة أصوات فما فوق يتقدَّمون ويجلسون حول منضدة حيث يجدُ كلٌّ منهم كتاب ترانيم موضوعًا أمامه، وداخل الكتاب يجد واحدٌ منهم بطاقة تفيد بتعيينه الراعي الجديد. وعلى مدى السنتَين التاليتَين، على الراعي الجديد أن يعظ عظَتين في الأسبوع كلٌّ منها نحو تسعين دقيقة.

وعندما سألت صديقي الآميش: "ماذا لو لم يشعر الراعي المختار بأنَّه مؤهَّل؟". نظر إليَّ بِحَيرة، وأجاب: "إذا شعر بأنَّه مؤهَّل، فلا نريده. إنَّنا نريد شخصًا متواضعًا ينظر إلى الله".

لا أنصح بهذه الطريقة في دعوة الرُّعاة (مع أنَّها تشابه طريقة العهد القديم في إلقاء القرعة)، لكنَّ تعليقه الأخير جعلني أفكِّر. لقد قال توماس ميرتون (Thomas Merton) ذات مرَّة إنَّ أغلب ما نفعله، نحن الرعاة، من تعليم الأشخاص، وإسداء النصح والمشورة لهم، والصلاة من أجلهم ما هي إلَّا أمور يجب أن تفعلها كلُّ الرعيَّة بعضها مع بعض.

هل أصبح تركيزنا المعاصر على الوصف الوظيفيِّ والكفاءة المهنيَّة، يجبرنا على إهمال المواصفات الأهمِّ للراعي، أي الاحتياج لأن يعرف الله؟ أذكر أنَّ القائد الهندوسيَّ غاندي، الذي كان يقود أكثر من مليار إنسان، حتَّى في خضمِّ المباحثات الساخنة حول الاستقلال عن التاج البريطانيِّ، رفض أن يتنازل عن مبدئه الذي بمقتضاه كان يكرِّس كلَّ يوم اثنين للصمت. لقد كان يعتقد أنَّ الفشل في إكرام ذلك اليوم من التغذية الروحيَّة سوف يجعله أقلَّ فاعليَّة طَوال الأيَّام الستَّة الأخرى.

يدفعني هذا لأتساءل: كيف سيصبح قادتنا الروحيُّون إذا أعطيناهم يومًا في الأسبوع من الصمت، والتفكير العميق والتأمُّل، والدراسة الشخصيَّة؟ وكيف ستزداد

كفاءة كنائسنا عندما نضع الصحَّة الروحيَّة للراعي، لا كفاءته المهنيَّة، لتكونَ الأولويَّة الأولى عندنا؟

عمود "الصفحة الخلفيَّة"، مجلَّة المسيحيَّة اليوم، ٢١ أيَّار/مايو ٢٠٠١م

٩ كانون الثاني/يناير

مُرشد الظِّلِّ

التقيتُ الكاتب الإنكليزيَّ سي. أس. لويس (C. S. Lewis) للمرَّة الأولى في ثلاثيَّة روايته الفضائيَّة. لقد كان لها تأثير عميق في حياتي، إذ جعلت الفائق للطبيعة يبدو قابلًا للتصديق حتَّى إنِّي لم أستطع إلَّا أن أتساءل: ماذا إذا كان ذلك حقيقيًّا؟

التحقتُ بالجامعة في أواخر ستِّينيَّات القرن العشرين، بعد وفاة لويس سنة ١٩٦٣م بسنوات قليلة. وصارعت مع كُتُبِهِ كما يُصارع الإنسانُ خَصمًا في مُناظرة. وبتردُّد، شعرتُ بنفسي أنجذب، كما حدث مع لويس نفسه، وحُملت إلى ملكوت الله وأنا أصرخ وأركل بقدميَّ. ومنذ ذلك الحين ظلَّ لويس رفيقي الدائم، كأنَّه مرشد يجلس في الظِّلِّ خلفي يشجعني أن أُحسِّن من أسلوب كتابتي، وتفكيري ورؤيتي.

علَّمني لويس أسلوبًا لمُقاربة الأشياء، أحاول أن أتَّبعه في كتاباتي. وفي ذلك أقتبسُ وليم جيمس (William James): "في مجال الدين وما هو فائق للطبيعة، يُصبح منطقنا المحكيُّ مُقنعًا فقط عندما تتأثَّر مشاعرنا غير المحكيَّة نحو الواقع منجذبةً إلى تلك النتيجة المنطقيَّة ذاتها". وبكلمات أخرى، فإنَّنا نادرًا ما نقبل طرحًا منطقيًّا لم يتلامس في الوقت نفسه مع حدسنا المباشر نحو الحقيقة. والتحدِّي الذي يواجهه الكاتب هو أن يخاطب هذا الحَدس المباشِر، كما فعل لويس فِيَّ في ثلاثيَّة رواية الفضاء قبل حتَّى أن أقرأ كتبه الدفاعيَّة.

لقد كانت خلفيَّة لويس في الإلحاد والشكِّ تعطيه دائمًا فهمًا وتعاطفًا مع القرَّاء الذين لا يقبلون كلامه، إذ دخلَ هو نفسه في شدٍّ وجذب كبير مع الله، واكتشف في النهاية أنَّ الإله الذي في الطرف الآخر من الحبل، مختلفٌ تمامًا عمَّا كان يظنّ.

وبالمثل، كان عليَّ أنا أيضًا أن أتغلَّب على صورةٍ للهِ، شوَّهتها كنيسة غاضبة ناموسيَّة. لقد صارعت بشدَّة ضدَّ صورة الله تُصوِّره متنمِّرًا كونيًّا متربِّصًا بالبشر، لكي أكتشف أنَّ الله هو إله الرحمة والنعمة.

أشكُّ أنَّ لويس توقَّع النجاح الجامح لكتاباته والأفلام المبنيَّة عليها، والمنتجات الكثيرة المستوحاة من أفكاره، والتي انتشرت على نحو ذائع الصِّيت. إذا كان قد أُخبِر بهذا وهو على قيد الحياة، لجَزَعَ وتراجعَ؛ فقد كان يقول دائمًا إنَّنا نحن معشر الكُتَّاب لسنا أسماءً، بل مُجرَّد صفات، نشيرُ إلى الاسم الكبير للحقّ. وهذا ما فعله لويس، بكلِّ أمانة وبراعة، ولكونه حقَّق هذا، فإنَّ مئات الآلاف من الناس عرفوا ذلك الاسم، بمن فيهم أنا.

عمود "الصفحة الخلفيَّة"، مجلَّة المسيحيَّة اليوم، عدد تمُّوز/يوليو ٢٠٠٨م

١٠ كانون الثاني/يناير

لاهوت من نكات قذرة

تمتَّع سي. أس. لويس بالموهبة الأدبيَّة التي تمكِّنه أن يصيغ فكرته في سطر واحد. وذات مرَّة قال ببساطة شيئًا كهذا: في غياب أيِّ دليل آخر، يمكن إثبات أساسيَّات اللاهوت الطبيعيِّ من ظاهرتَين بشريَّتَين: النكات القذرة وموقف الفرد من الموت.

لنبدأ بالنكات القذرة. تتمحور هذه النكات بصورةٍ خاصَّة حول أمرَين: الإخراج والتكاثر، وهما اثنتان من أكثر العمليَّات "طبيعيَّة" على وجه الأرض؛ لكنَّنا نتعامل معهما بتعالٍ وخجل وكأنَّهما غير مألوفتين، بل فكاهيَّتان. ومع أنَّها وظائف نشترك فيها مع كلِّ الحيوانات، فإنَّها تبدو غريبة للبشر.

ومن جهة الموت، فإنَّ البشر يتصرَّفون بصورة أبعد ما تكون عن الحيوانات في حضوره. إذ تتعامل الطبيعة مع الموت بصورةٍ طبيعيَّة تمامًا، أمَّا البشر، فوحدهم يتعاملون معه بصدمة واشمئزاز، كما لو كُنَّا لا نستطيع اعتيادَ هذه الحقيقة الكونيَّة المتكرِّرة.

ويقترح لويس أنَّ هذه السِّمةَ البشريَّة (مثل ظاهرة الضمير التي كثيرًا ما يجري تناولها في هذا الشأن) تكشف عن حقيقة ذلك الشقاق داخل البشر. كلُّ إنسان هو روح مخلوقة على صورة الله، لكنَّها مرتبطة بجسد مادِّيّ، فتأتي النكات القذرة والهوس بالموت لتكشف إحساسًا بالقلق وعدم الانسجام فينا بينما نمكث في هذه البيئة. علينا فعلًا أن نشعر بعدم التوافق، لأنَّنا في نهاية الأمر، كائنات أبديَّة تعيش في أوضاع فانية. ونفتقر إلى الإحساس بالوحدة الداخليَّة لأنَّه قد انفتح فينا مُنذ زمن طويل شقٌّ كبير بين كيانَيْنا، الأبديّ والفاني؛ ويُعزي اللاهوتيُّون هذا الشقَّ إلى سقوط الإنسان.

وبحسب الرؤية الكتابيَّة للبشريَّة، من الطبيعيِّ أنْ نخجل من ذكر الإخراج ونخاف من الموت؛ فمثل هذَين العملَين يبدوان غريبَين لأنَّهما كذلك فعلًا لكائنات روحيَّة مثلنا. في كلِّ الأرض، لا يوجد غيرنا مثالًا لانسكاب الروح الأبديَّة في المادَّة الفانية المحدودة. والقلق الذي نشعر به ربَّما يكون هو الشعور البشريَّ الأدقَّ، الذي يذكِّرنا أنَّنا لسنا "في بيتنا" هنا.

ويستخدم سي. أس. لويس صيغة مبالغة بقوله إنَّه رغم صعوبة أن يستخرج المرء لاهوتًا جوهريًّا كهذا من النكات القذرة ومن التوجُّه من الموت، فإنَّ من الأصعب إنكار كلِّ أشكال اللاهوت الطبيعيِّ في وجه هذه الشائعات التي تنمُّ على سموِّنا ومثيلاتها.

من كتاب: كُنتُ أتساءَل فقط

١١ كانون الثاني/يناير

مشكلة اللذَّة

لماذا يُعدُّ الجنس متعة؟ لماذا الأكل متعة؟ لماذا توجد ألوان؟ منذ أيَّام، بعد أن قرأت آخر كتاب عن "مشكلة الألم" (وقد قرأت الكثير منها)، راودتني فكرة، لماذا لم أرَ كتابًا عن مشكلة اللذَّة؟ ولم أقابل فيلسوفًا يجول مفكِّرًا مُتحيِّرًا بشأن السؤال الأساسيِّ: لماذا نختبر اللذَّة؟

من أين تأتي اللذَّة؟ يبدو هذا لي سؤالًا كبيرًا، وكأنَّه المقابل الفلسفيُّ، المُوَجَّه إلى المُلحِدين، مقابل سؤال الألم المُوَجَّه إلى المَسيحيِّين. أليس على الملحدين والإنسانيِّين

العلمانيِّين، التزامٌ مساوٍ لشرح أصل اللذَّة في عالم، بحسب رأيِهِم، يحكمه غياب المعنى والمصادفة؟

شخصٌ واحد، على الأقلِّ، واجه الأمر بصورة مباشرة في كتابه الذي لا غنى عنه "**الإيمان القويم**"[٣]، الذي فيه تتبَّع جي. كاي. تشسترتون (G. K. Chesterton) حقيقة أنَّ سبب اهتدائه هو شخصيًّا للمسيحيَّة كان قضيَّة اللذَّة. وذلك لأنَّه وجد أنَّ الفلسفة المادِّيَّة ضعيفة جدًّا في تفسيرها لذلك الإحساس بالدهشة واللذَّة الذي أحيانًا ما يميِّز الحياة في هذا العالم– إحساسٍ يعطي ما يشبه البُعد السحريَّ لبعض الممارسات البشريَّة البسيطة مثل الجنس، وولادة الأطفال، والإبداع الفنِّيّ.

إن اللذَّة تُمثِّلُ خيرًا عظيمًا وخطرًا جسيمًا في الوقت نفسه؛ فإنَّنا إذا بدأنا بالسعي وراء اللذَّة بوصفها هدفًا في حدِّ ذاته، فقد نفقد في الطريق إلى ذلك رؤية ذاك الذي أعطانا هذه العطايا، مثل الرغبة الجنسيَّة، وبراعم التذوُّق في اللسان، ومركَز اللذَّة في الدماغ، والقابليَّة لتقدير الجمال. وكما يخبرنا سفر الجامعة، فإنَّ التكريس التامَّ للَّذَّة في حدِّ ذاتها، سوف يؤدِّي في النهاية، وبصورة عكسيَّة، إلى حالة من اليأس التامّ.

اشتُهِر المسيحيُّون بصورةٍ أو بأُخرى بأنَّهم مضادُّون للَّذَّة، هذا مع أنَّهم يؤمنون بأنَّ اللذَّة هي من اختراع الخالق نفسه. إنَّ لدينا، نحن المسيحيِّين، اختيارًا: أن نقدِّم أنفسنا بوصفنا أشخاصًا متزمِّتين ومُملِّين تَخَلَّوا عن نصف المتعة التي في الحياة لكونهم يُحِدُّونَ من انغماسهم في لذَّة الجنس والأكل وغيرها من اللذَّات الحسِّيَّة، أو أن ننطلق للاستمتاع باللذَّة إلى النهاية، وذلك يعني الاستمتاع بها كما قصد الخالق.

لن يقبل الجميع الفلسفة المسيحيَّة للذَّة بوصفها عطيَّة إلهيَّة يُستَمتَع بها بأفضل صورة في إطار حدود مقصودة من الخالق؛ فقدْ يتهكَّم بعض من المتشكِّكين على أيِّ شكل من أشكال الحدود أو التقنين. لكنَّ لديَّ لهؤلاء المتشكِّكين، بعض الأسئلة البسيطة: لماذا الأكل مُمتع؟ لماذا توجد ألوان؟ ما زلت أنتظر شرحًا وافيًا لا يتضمَّن وجود الله.

من كتاب: كُنتُ أتساءَل فقط

---

٣) كتاب "**الإيمان القويم**" (Orthodoxy) من منشورات أوفير للطباعة والنشر (الناشر).

١٢ كانون الثاني/يناير

لحظات الطَّفو

لن أنسى ما حييت تلك المقابلة مع القوَّة العجيبة للفنّ لمَّا زرت روما؛ ففي اليوم الأوَّل، استيقظت قبل الفجر بوقت كافٍ، واستقللتُ الحافلة إلى نهر التيبر (Tiber) الواقع مباشرة خارج مدينة الڤاتيكان. ثُمَّ وقفت على الجسر المُزَيَّن بأعمدةٍ نحت فيها تماثيل الملائكة بيَدِ بيرنيني (Bernini) لأشاهد شروق الشمس. وببطء وهدوء، تمشَّيت عابرًا عدَّة بنايات لأصل إلى كنيسة القدِّيس بطرس. وتجوَّلت في مساحاتها الهائلة في وقت كان غايةً في الهدوء لدرجة أنَّ كلَّ خطوة من خطواتي كان يتردَّد صداها بين جدرانها الجميلة. وباستثناء بعض الراهبات التقيَّات اللاتي كُنَّ ساجدات يُصلِّين، كُنتُ بمفردي حينها.

وبعد فترة، صعدت السلالم إلى سطح الكنيسة، الذي منه أمكنني تفحُّص التماثيل والنظَر من فوق إلى الميدان بأكمله، فرأيت طابورًا طويلًا يتلوَّى خارجًا إلى الميدان. لم يكونوا سائحين، وإنَّما فرقة ترتيل مكوَّنة من مئتين من المغنِّين الأكْفاء الذين جاءوا بالحافلة من ألمانيا. وبينما كانوا يتجمَّعون، كنت أتابع من شُرفة القُبَّة التي صمَّمها مايكل أنجلو حتَّى كَوَّنَت الفرقة دائرةً كبيرة تحتي مباشرة، وبدأوا يرنِّمون بعضَ الكلمات دون مصاحبة آلات موسيقيَّة كانت باللغة اللاتينيَّة، وبعضها بالألمانيَّة. وداخل هذا المخبأ الرائع تحت القُبَّة الهائلة التي تُهيِّئ أفضل وضع للصوتيَّات، شعرت بأنَّني مُعلق وسط موسيقاهم مثل من طفى على سطح المياه، وكأنَّني إذا رفعت يداي، ستحملني موسيقاهم.

لقد كان مايكل أنجلو بلا منازع أفضل فنَّان عاش على وجه الأرض، وقد اعترف في مرحلة متأخِّرة من حياته أنَّ أعماله الفنِّيَّة زاحمت إيمانه الشخصيَّ، وعندما كانت حياته تقترب من نهايتها كتب هذه الكلمات:

هذا الوَجد الغاشم
جعلني أتَّخذ من الفنِّ إلهًا ومَلكًا لحياتي
لكنَّني مع الوقت أدركت حجم الخطأ الفادح
وكيف أنَّ رغبة الإنسان الجامحة يمكن أن تحمل معها بؤسه.
لقد سرقت منِّي تفاهات العالم

الوقت الذي كان يمكن أن أعطيه لكي أتأمَّل في إلهي.

ربَّما. لكنَّ مايكل أنجلو وأمثاله، منحونا بعملهم الفنِّيِّ الشاقِّ أن نتحوَّل نحنُ عن تفاهات العالم، وأعطونا الوقت لكي نتأمَّل عن إلهنا. وإنَّني، في تلك البُرهة القصيرة داخل كنيسة القدِّيس بطرس، سَكنتُ فضاءً مجيدًا ليس على هذه الأرض، بل هي لحظة من الزمن، ليست من هذا العالم. لقد صنع بي الفنُّ صنائعه.

من مقال "ما يمكنك ولا يمكنك أن تفعله"، موقع فيرست ثينغز، شباط/فبراير ٢٠٠٩م

١٣ كانون الثاني/يناير

رؤية المسيَّا

قرأت سنة ١٩٩٣ تقريرًا إخباريًّا عن "رؤية المسيَّا" في الجزء المُسمَّى "كراون هايتس" (Crown Heights) في بروكلين، نيويورك حيث يعيش عشرون ألفًا من المنتمين إلى أحد مجتمعات اليهود المتديِّنين (الحسيديم). وفي سنة ١٩٩٣م اعتقد عدد كبير منهم أنَّ المسيَّا كان يقيم بينهم في شخص الحاخام مناحيم مندل شنيرسون (Menachem Mendel Schneerson).

انتشرت الأخبار عن الظهور العلنيِّ لهذا الحاخام مثل النار في الهشيم في شوارع هذه المنطقة، وسرعان ما اندفع أبناء هذه الجماعة بمعاطفهم السوداء، وضفائر شعرهم اللولبيَّة ليتجمَّعوا على جَانِبَي الطريق إلى المجمَع حيث كان هذا الحاخام معتادًا أن يُصلِّي.

كان هذا الحاخام يبلغ من العمر واحدًا وتسعين سنة، وقد أصابته جلطة في السنة السابقة ولم يعد قادرًا على الكلام منذ ذلك الوقت. وعندما أُزيح الستار أخيرًا وحضر الحاخام، رأى المتجمهرون على جانِبي الطريق رجلًا هزيلًا ذا لحية طويلة لم يستطع أن يفعل شيئًا سوى أن يلوِّح، ويومئ برأسه ويحرِّك حاجبيه. لكن لم يمنع هذا الحضورَ من الغناء بصوتٍ واحد "يعيش سيِّدنا ومعلِّمنا، وملكنا المسيح، إلى الأبد". وتعالت الأصوات حتَّى أشار الحاخام إشارة غامضة بيده، ثمَّ أُسدِلَ الستارُ عن المشهد. بعدها راحوا يغادرون ببطء، وهم يتذوَّقون اللحظة في حالة من النشوة.

عندما قرأت هذا التقرير الأخباريَّ أوَّل مرَّة كدت أضحك بصوت عالٍ- مسيحٌ مُسِنّ أخرس في بروكلين؟ (تُوُفِّي سنة ١٩٩٤م) ثمَّ صدمتني الفكرة: إن ردَّ فعلي على الحاخام شنيرسون مطابق لردِّ فعل الشعب في القرن الأوَّل على يسوع. مَسِيّا من الجليل؟ ابن نجَّار؟ فقط؟

جعلني هذا الموقف المُتَهَكِّم الذي اتَّخذتُهُ نحو الحاخام وأتباعه أدرك طبيعة ردود الفعل التي واجهها يسوع طوال حياته. كان جيرانه يقولون: "أليست أمُّه مريم، وإخوته يعقوب ويوسف، وسمعان ويهوذا؟ من أين أتى هذا الإنسان بتلك الحكمة وهذه القوى المعجزيَّة؟" كما تهكَّم بعض المواطنين وهم يقولون: "الناصرة؟ أمن الناصرة يخرج شيءٌ صالح؟". حتَّى أسرته كانت تحاول أن تعزله عن الناس، معتقدين أنَّه كان مختلًّا. كما أنَّ القادة الدِّينيِّين حاولوا أن يقضوا عليه. أمَّا الجماهير، فكانت متقلِّبة، تارَّة يقولون إنَّه "مجنون أو فيه روح شرِّير"، وتارَّة يحاولون أن يختطفوه ليجعلوه ملكًا.

من كتاب: يسوع الذي لم أكن أعرفه

١٤ كانون الثاني/يناير

غير المرغوب فيهم

كان يسوع يهوديًّا...لكنَّه في مواقفَ عدَّة، لم يتصرَّف بصفةِ يهوديّ. لقد كان التصميم المعماريُّ للهيكل يُعَبِّر عن الاعتقاد اليهوديِّ بضرورة وجود سُلَّم من الرُّتب يرتفع درجة درجة نحو الله. كان مسموحًا للأمم و"مختلطي العِرق" مثل السامريِّين أن يدخلوا فقط رواق الأمم الخارجيَّ؛ وكان هناك جدارٌ فاصل يفصلهم عن النطاق التالي، الذي كان مسموحًا بدخوله للنساء اليهوديَّات. أمَّا الرجال اليهود، فكان مسموح لهم بالدخول إلى مرحلة أقرب. كان مصرَّحًا بدخول القدس للكهنة فقط.

وهكذا فإنَّ المجتمع نفسه كان مجتمعًا مقسَّمًا طبقات دينيَّة تُعبِّر عن درجات متفاوتة من القداسة، وكان الفرِّيسيُّون يحرصون على الحفاظ على هذا النظام بدقَّة شديدة وبصورة يوميَّة. كما كانت قوانينهم وممارساتهم الطقسيَّة مثل غسل الأيدي وتجنُّب النجاسة بكلِّ صورها تجسِّد محاولاتهم الدؤوبة أن يجعلوا أنفسهم مقبولين أمام الله. ألم يضع الله قوائم

بالحيوانات المقبولة ذبيحةً (الطاهرة)، وغيرها من الحيوانات غير المقبولة (النجسة)؟ ألم يمنع الله الخطاة، والنساء الطامِثات، وأصحاب التشوُّهات الجسديَّة، وغيرهم من "غير المرغوب فيهم" من دخول الهيكل؟

وفي وسط هذا النظام الطبقيِّ الدينيِّ، ظهر يسوع لا يتردَّد في التفاعل الاجتماعيِّ مع الأطفال، أو الخطاة، أو حتَّى السامريِّين. لمس "النجسين" وسمح لهم بأن يلمسوه، سواء كانوا بُرصًا أم مشوَّهين، أم نساء مصابات بالنزيف، أم مجانين أم من فيهم أرواحٌ نجسة. وبالرغم من أنَّ القوانين المذكورة في سفر اللاويِّين حدَّدت يومًا للتطهير بعد لمس مريض، فقد كان يسوع يجري مناسبات للشفاء بالجملة، ويلمسه عشرات المرضى، ولم يعبأ بتاتًا بقواعد الطهارة المطلوبة بعد التلامس مع المرضى أو الموتى.

في واقع الأمر، قَلَبَ يسوع الحكمة المقبولة في عصره، رأسًا على عقب. لقد كان الفرِّيسيُّون يؤمنون بأنَّ التلامس مع المريض ينجِّس الإنسان، لكن عندما كان يسوع يلمس الأبرص، لم يكن يتنجَّس، بل كان الأبرص يبرأ. وعندما غسلَت امرأة تعيش حياة لاأخلاقية قدمَي يسوع، ذهبت وقد غُفر لها، وتغيَّرت حياتها. وعندما تمرَّد يسوع على العادات السائدة ودخل بيت رجل أمميّ، شَفى عبد ذلك الرجل. وكما يعبِّر والتر وينك (Walter Wink) "تغلَّبت عدوى القداسة على عدوى النجاسة".

وباختصار، نقل يسوع التركيز من قداسة الله (الحصريَّة) إلى رحمة الله (الاستيعابيَّة). وبدلًا من رسالة "لا دخول لغير المقبولين" أعلن أنَّه "في ملكوت الله لا يوجد غير مقبولين".

"اكتشاف يسوع"، مجلَّة المسيحيَّة اليوم، ١٧ حَزِيران/يونيو ١٩٩٦م

١٥ كانون الثاني/يناير

خسارة الحروب الثقافيَّة

تناولت ذات مرَّة موضوع "الحروب الثقافيَّة" أمام تجمُّع كبير بعنوان "نحو قناعة ديمقراطيَّة ليبراليَّة"، حيث ضمَّ أقليَّة قويَّة من اليهود. وقد اخترتُ لأمثِّل المسيحيِّين الإنجيليِّين في

جلسة ضمَّت رؤساء "قناة ديزني" (Diseny Channel) و"ورنر برذرز" (Warner Brothers)، ورئيس "كلية ويلسلي" (Wellesley College).

ولكي أُعِدَّ حديثي، ذهبت إلى البشائر الأربع لأحصل على الإرشاد، فاكتشفت أنَّ يسوع لم يكن سياسيًّا قطُّ. والآن، في كلِّ مرَّة تأتي الإنتخابات الأميركيَّة، يبدأ المسيحيُّون يتجادلون ما إذا كان هذا المرشَّح "رجلَ الله" (أو امرأة الله) المُعَيَّن للبيت الأبيض. وإنَّني لأجد أنَّه من الصعب أن أتخيَّل يسوع يفكِّر، مثلًا، ما إذا كان طيباريوس، أو أوكتافيوس، أو يوليوس قيصر هو "رجل الله" للإمبراطوريَّة.

لقد صُدِمتُ بما يفعله المسيحيُّون عندما يخسرون الحروب الثقافيَّة. في موجات الاضطهاد في ستِّينيَّات القرن العشرين، مثلًا، كان المؤمنون الصينيُّون يتعرَّضون للغرامات، أو السجن والتعذيب. وبالرغم من هذا الاضطهاد الحكوميِّ، فقد اندلعت نهضة روحيَّة، يمكن أن تكون هي الأكبر في تاريخ الكنيسة. أكثر من خمسين مليون إنسان أعلنوا ولاءَهُم لملكوتٍ غير مرئيٍّ بالرغم من أن الملكوت المرئيَّ كان يجعلهم يعانون بسبب ذلك.

عندما جاء دوري للحديث، قلت إنَّ الرجل الذي أتبعه وهو يهوديٌّ من القرن الأوَّل، كان أيضًا متورِّطًا في حروب ثقافيَّة. لقد تصدَّى لمؤسَّسة دينيَّة متحجِّرة وإمبراطوريَّة وثنيَّة. هاتان القوَّتان اللتان كانتا متعارضتين، إلَّا أنَّهما تآمرتا معًا للقضاء عليه. ماذا كان ردُّ فعله؟ لم يكن ردُّ فعله الحرب والصراع، بل أن يقدِّم حياته من أجل أعدائه، ويشير إلى هذه العطيَّة بوصفها دليلًا على محبَّته. ومن بين كلماته الأخيرة التي قالها قبل موته: "يا أبتاه اغفر لهم لأنَّهم لا يعلمون ماذا يفعلون".

وبعد الندوة، جاءني أحد المشاهير التلفزيونيِّين يمكن أن يميِّزه معظم القرَّاء إذا ذكرت اسمه وقال لي: "يجب أن أقول لك إنَّ ما قلتَه طعنني في القلب مباشرة. لقد كنتُ مستعدًّا أن أُقاومك، لأنَّني لا أقبل الجناح اليمينيَّ المسيحيَّ، وافترضت أنَّك منهم. إنَّني لا أتبع يسوع، فأنا يهوديّ. لكنَّك عندما تكلَّمت عن غفران يسوع لأعدائه، أدركت كم أنَّني بعيد عن تلك الروح. في الواقع، لديَّ الكثير لأتعلَّمه من روح يسوع".

"اكتشاف يسوع"، مجلَّة المسيحيَّة اليوم، ١٧ حَزِيران/يونيو ١٩٩٦م